اثناء المظاهرات الشعبية في مدينة « قم »

ايران

الشاه والرهان الخاسر على الدبابات

الجماهير تقاوم بالحجارة وتطلب السلاح

حرب الشوارع في طهران وفي احدى عشرة مدينة اخرى ، التي اندلعت في اواخر الاسبوع الماضي ، وقد تمخضت عن الانتفاضات الشعبية المتواصلة ضد حكم لشاه ، ادت الى اعلان حكومة جعفر امامي الاحكام العرفية في ١٢ مدينة رئيسية في ايران ، لمدة ستة اشهر ، ومع ذلك ، فقد تفاقم الوضع الامني باستمرار الاشتباكات بين المتظاهرين وقوات الجيش ، ووصلت حدتها الى درجة ان الشاه اضطر الى الغاء زيارته لكل من المانيا الديمقراطية ورومانيا ، وبدا واضحا من عنف قمع جماهير المتظاهرين ، ان الحكم قد اختار الطريق الوحيدة التي يعرفها ويتقنها للدفاع عن امنه من مناوئيه الناشطون ضده منذ ٩ اشهر ، من دون كلل ، فما من حكم ديكتاتوري عاد فقاد بلاده نحو مناخ ليبرالي ، كلهم اختاروا في وقت من الاوقات ، حماية الدبابات حتى آخر رمق ، وشاه ايران لا يختلف عن غيره من الحكام الديكتاتوريين الذين عرفتهم شعوب عديدة في بقاع العالم .

ان لجوء حكومة جعفر امامي الى فرض الاحكام العرفية في هذه المدن الرئيسية في ايران ، قد اطلق يد قوات النظام القمعية اطلاقا كاملا ، وبات في وسع الحكومة الجديدة ، الرد على اي استجواب في البرلمان ، من قبل العناصر المعارضة ، بخصوص الطابع الدموي لعمليات قمع الجماهير المتمردة على النظام ، بات في وسعها نفي علمها بمثل هذه الاعمال ، وتحويل السائلين الى الحكام العسكريين للمدن الخاضعة للاحكام العرفية ... ولكن قرار حكومة امامي في فرض الاحكام العرفية على هذه المدن يشكل اقرارا ضمنيا من جانبها ، على فشلها في مهمتها فشلا ذريعا ، الامر الذي يشكل بدوره اقرارا من حكم الشاه بالفشل الذريع على الصعيد السياسي والعودة الى الاعتماد شبه الكلي ، على قوة نظامه العسكرية الضاربة لمواجهة الانتفاضات الشعبية ضده ، وقوى المعارضة الجذرية التي ثبت انها هي الاقوى ، وهي النافذة في اوساط الجماهير الايرانية وليس زعامات قوى المعارضة الليبرالية .

لقد سقط منذ تشكيل حكومة جعفر امامي حتى الان ، عدد من القتلى والجرحى ، اكثر من اي فترة سابقة خلال الاشهر التسعة على الانتفاضات الشعبية في البلاد ، فقد باتت قوات الجيش والامن تستخدم رصاص رشاشاتها ومدفعية دباباتها المنتشرة في شوارع هذه المدن ، اكثر بكثير مما تستخدم القنابل المسيلة للدموع ، لتفريق جماهير المتظاهرين ، الغاضبة ، لا بل وقد استخدمت ايضا طائرات الهليكوبتر العسكرية ، التي كانت تطوف فوق جمهرة من المتظاهرين ، وتفتح عليهم نيران رشاشاتها .

ولهذا سقط هذا العدد الكبير من القتلى خلال فترة الاسبوع التي انقضت على تشكيل الحكومة الجديدة ، ورغم ان مصادر السلطة تزعم بان عدد القتلى قد ارتفع فقط من ٥٨ الى ٩٥ قتيل ، الا ان مصادر وزارة الصحة وسائقي سيارات الاسعاف التي تقوم بنقل الجثث والجرحى ، تقول بان عدد القتلى يزيد عن ٤٥٠ قتيل ...

■ فشل منذ البداية

ولعلى ابرز شاهد على فشل حكومة امامي في خطواتها الاولى ، ردة فعل الجماهير الايرانية لقرار فرض الاحكام العرفية ، وموقف المعارضة الدينية « المعتدلة » ، من القرار ، وما تأتى عنه على الصعيد الامني . فمن جهة ، لم يردع اعلان الاحكام العرفية ، الجماهير عن مواصلة النزول الى الشارع لمواصلة معركتها ضد حكم الشاه ، ولمقاومة قوات الجيش التي تقوم بتنفيذ ما تنص عليه هذه الاحكام . فمن بعد مرور بضعة ساعات فقط نزلت مجموعة من المتظاهرين الى الشارع لم تلبث ان كبرت وكبرت مثل كرة الثلج المتدحرجة ، حتى تحولت الى تظاهرة عنيفة ضخمة ، اشتبكت مع قوات الجيش ، تستخدم الحجارة ، بينما الجنود يستخدمون سلاحهم . ورغم ان استخدام اطلاق النار المباشر ووقوع اعداد من القتلى والجرحى قد نجح في تفريق المتظاهرين ، الا ان الامر لم ينته بهذا الشكل . فقد لجأت الجماهير المنتفضة الى اقامة المتاريس في الشوارع لعرقلة سير وتحرك قوات الجيش ، الامر الذي كان يجبر المدرعات على قصف تلك المتاريس لفتح الطرقات امام تحركها . وبحسب التقارير الصحافية من طهران ، فان العاصمة قد بدأت تشهد عمليا ، حرب شوارع بين قوى المعارضة وبين الجيش ، الذي تتعرض مواقعه وحواجزه ، لعمليات هجومية بصورة متواصلة . ومن جهة ثانية ، فقد فشلت حكومة امامي في فتح حوار مع المعارضة الدينية « المعتدلة » . فمنذ تفاقم نظام الحكم الامني ، والمعارضة الدينية المسماة بالمعتدلة - والتي لا تتعدى شعاراتها في المعركة القائمة ، المطالبة باصلاحات من نظام الحكم القائم - هي الطرف المرشح للتفاوض مع الحكومة لايجاد صيغة تسوية مع الحكم ، تعطي الشاه الهدنة التي يريدها ، وفرصة شق المعارضة لضرب جناحها الجذري ، الذي يرفع شعار اسقاط الشاه واخراج الاميركيين من ايران . ورغم ان هذه المعارضة المعتدلة كانت دوما مستعدة للحوار مع الشاه ، الا انها ما تزال تتردد عن ذلك حتى الان ، لانها ليست هي الجناح الاقوى والاكثر نفوذا في حركة المعارضة الدينية ، وان بدء اي حوار مع الحكم وسط هذه الاجواء الحالية ، كفيل بتقليص ما لديها من نفوذ ، وعزلها لصالح الجناح التقدمي المناوئ لنظام حكم الشاه وللوجود العسكري الاميركي في ايران - وحجمه يتراوح بين ٣٥ الف و٤٠ الف اميركي ، يعمل معظمهم في القواعد والمنشآت العسكرية في ايران . ولهذا سقط منذ البداية ، شعار المصالحة الوطنية الذي رفعه رئيس الحكومة جعفر امامي . ورغم اصرار امامي على التردد بان حكومته ستواصل جهودها لتحقيق هذه المهمة ، الا ان عنف ودموية عمليات القمع التي تقوم بها قوات النظام ضد القوى المناوئة للشاه ، قد اسقطت اي امكان لقيام حوار بين السلطة والمعارضة المعتدلة لتحقيق « المصالحة الوطنية » ، ولم تترك هذه العمليات اي باب مفتوح ، سوى باب الحوار بالحديد والنار . وبدا واضحا ان شعار « المصالحة الوطنية » الذي رفعه امامي ليس هو العنوان الحقيقي لمهمة حكومته ، بل مجرد واجهة ، وقد خطمها عمليا اعلان الاحكام العرفية ، لتظهر على الملأ حقيقة نوايا نظام حكم الشاه تجاه القوى المعارضة له .

■ الاعتراف الضمني

وهنا لا بد من الملاحظة بانه ليس آمر بسيط ان يعلن الشاه الغاء زيارته المقررة الى كل من رومانيا والمانيا الديمقراطية ، بعد مرور اقل من ٢٤ ساعة ، على نفي مصادر البلاط الشاهنشاهي ، انباء تحدثت عن امكان الغاء الزيارة . لقد كان الشاه على ما يبدو ، مصرا على القيام بزيارته في محاولة للظهور بمظهر المطمئن الى قدرة اجهزة حكمه مواجهة هذه « المصاعب » الداخلية ، وبمظهر الحاكم غير القلق على مصير حكمه . ولكنه اضطر اخيرا الى تأجيل زيارته ، معترفا ضمنا بخطورة ما يجري ، على حكمه الذي لم يعرف سوى القمع والارهاب وانتهاك حقوق الانسان الايراني ، لغة للتحاور مع معارضيه ، على اختلاف توجهاتهم . فقد تضاعف قلق الشاه بسبب فشل مناورته الاخيرة - تشكيل حكومة امامي الجديدة - وقد تبين له ان المعارضة الدينية الجذرية التي يقودها الامام اية الله الخميني ، من منفاه في العراق ، هي اقوى من المعارضة الدينية « المعتدلة » - وابرز رموزها الامام اية الله شريعة مداري - واقوى الى درجة انها استطاعت حتى الان كبح « المعتدلين » عن القبول ببدء التفاوض مع حكومة امامي .

وهناك ثمة ظاهرة يجب ان لا نغفلها ، وهي ان بلاط الشاه نفسه يتحول الى بيت من زجاج . فقد قدم وزير البلاط امير عباس هويدا استقالته . وهويدا كان حتى اللحظة احد اقرب المقربين من البلاط . ولم تعرف اسباب استقالته . اكثر من ذلك ، فقد اصبحت المعارضة اليمينية والليبرالية داخل البرلمان ، مصدرا ايضا ، من مصادر الهجوم على الحكومة ، من بعد اعلان الاحكام العرفية بوجه خاص . هذا ، بالاضافة الى ما حل بحزب « رستاخيز » حزب النظام الشرعي الوحيد ، الذي شهد استقالات من صفوفه ، ادت الى انشقاقات والى تشكل ثلاثة اجنحة متنازعة ، رغم ارادة الشاه . وهذه المظاهر تشير الى ان الشاه بدأ يعاني من مشاكل داخل خندقه ايضا ، تزيد من مخاوفه ، التي لم يبددها اتصال الرئيس الاميركي كارتر به والاعراب عن تأييد واشنطن لحكمه ولاجراءات القمع « المعتدلة » التي يقوم بها الشاه . فقد ارفق كارتر عبارات تأييده للشاه بالاعراب عن رغبته في ان يستمر الشاه باتخاذ الاجراءات الكفيلة باطلاق الحريات السياسية في البلاد - وذلك في اشارة واضحة الى رغبة ادارة كارتر بان يعمل الشاه جادا لتحسين صورة نظام حكمه الديكتاتوري الذي خلق له مناوئين حتى في الكونغرس الاميركي .

ورغم ان رغبة الولايات المتحدة بان ينفتح الشاه على مناخ ليبرالي ، تنطلق من حرصها على بقاء واستمرار نظام حكم الشاه ، وضمان استقرار وامن نظامه ، فان الشاه لم يستطع ان يرى الحكمة الاميركية في فتح « صمامات الامان » للمجتمع الايراني ، ولطالما حاول ان يقنع واشنطن والمعارضة الليبرالية في الداخل ، بان ايران ليست « مستعدة » بعد ، على الانفتاح على اجواء ليبرالية ... وان اية اجراءات يتخذها في هذا الاتجاه ، لن يتأثر عنها « سوى الفوضى والعنف » . وهو يشير الى الاحداث التي تشهدها ايران اليوم ، ليدلل على « صحة » قناعاته هذه (!)

■ الهدنة ... « السراب »

لقد اراد الشاه بالتغيير الحكومي محاولة اكتساب هدنة يستطيع من خلالها اعادة الامساك بشدة بزمام الامور وتكرار تجربة اوائل الستينات مع جعفر امامي نفسه . ولكن الذي حصل كان عكس توقعاته وتوقعات امامي ، الذي تراءى له انه كما « نجح » في الماضي سيستطيع ان « ينجح » اليوم . لقد راهن الشاه على استراتيجية عزل المعارضة الراديكالية ومن ثم تحطيمها ، وذلك بجر المعارضة « المعتدلة » الى صفقة تسوية . ولكن اواخر السبعينات في ايران هي غير اوائل الستينات . وقد اكتشف الشاه - وامامي - ذلك اخيرا . فزعماء المعارضة « المعتدلين » برغم استعدادهم على الحوار مع الحكم لكونهم يتوهمون

شريعة مداري في منزله في « قم »

انه ما زال قادرا على اجراء الاصلاحات التي يؤيدونها ، ادركوا قبل الشاه وقبل امامي ، ان دعوة الحكم لهم الى الحوار هو اليوم ، على عكس ما كان في الستينات ، شرك ، اذا وقعوا فيه فسيكونون كمن اختار الانتحار السياسي ، وان مصلحتهم في الحفاظ على ما لديهم من زعامة ومحازبين ، تفرض ان لا يأخذوا موقفا يتناقض علانية وموقف الزعامة المعارضة الراديكالية التي تستلهمها الاكثرية الساحقة من جماهير الشعب الايرانية المنتفضة . لقد انتظر الامام شريعة مداري بضعة ايام ، قبل ان يعلن رفضه لمناورة الشاه بتغيير الحكومة . فقد كان شريعة مداري بانتظار ردة فعل الامام الخميني من العراق قبل ان يتورط بالقبول بالمناورة والانجرار الى التفاوض مع حكومة امامي . وعندما اذان الامام الخميني المناورة ودعا الى مواصلة النضال ضد نظام الشاه ، لم تسقط آمال الزعماء المعتدلين فحسب ، بل سقطت مراهنة الشاه ورئيس حكومته الجديد ، على المناورة ، وامكان زرع اسفين في جبهة قوى المعارضة ، لاسترضاء « المعتدلين » ولضرب الراديكاليين .

■ « اعطونا سلاح »

ان مأزق حكم الشاه الان ، هو ان اتباع استراتيجية دق الاسفين لم تعد تثمر اليوم كما من قبل ، والا لما انتظر « المعتدلون » كل هذا الوقت ، للخوض في حوار الحكم . بل ان كل يوم يجعل مثل هذا الامر اكثر صعوبة عليهم - وربما كانت الظروف مؤاتية لذلك اكثر ، خلال الاشهر الاولى على بدء سلسلة الانتفاضات الشعبية المتصلة . واذا كان هناك ثمة ضغط على الشاه من جانب اليمين الليبرالي ، فذلك نابع من الخوف على نظام الحكم في ضوء اصرار الشاه على التعامل مع قوى المعارضة كما في الماضي ، ورفضه الاعتراف بان ثمة امور تغيرت خلال السنوات الخمس عشرة الاخيرة . ويخشى هؤلاء ان تجبر الاستراتيجية التي يتبعها الشاه الان ، « المعتدلين » الى المزيد من التصلب حتى لا تفقد زعاماتهم صلتها بجماهيرها . ولكن هذا لا ينفي حقيقة ان نظام حكم الشاه في مأزق دقيق . فاذا كان الاوان قد فات على استراتيجية دق الاسفين لشق المعارضة ، اضعافها وضربها ، لان القيادة الراديكالية هي التي تحرك الشارع الايراني ، فانه ربما قد فات حتى على « تنازلات » يمكن ان يقدم عليها حكم الشاه . لان اي تنازل من جانبه سيكون اشارة ضعف لن تسكن المعارضة ، بل تزيدها اصرارا على تحقيق ما تطمح اليه . وما تطمح اليه باكثريتها الساحقة هو ما عبر عنه الامام اية الله الخميني ، عندما دعا الشعب في اثر اعلان الاحكام العرفية ، الى المقاومة حتى اسقاط نظام الشاه ، الذي وصفه بالمجرم « الذي يتحكم منذ خمسة وثلاثين عاما في مصير الشعب المقهور » . وعندما دعا ايضا الجيش الايراني ، ورجال الدين الاسلامي ، والسياسيين الذين لا يخشون القمع ، الى التوجه نحو الشعب « في المسيرة التاريخية » ، وضم الصفوف اكثر فاكثر لمواجهة « عدو الشعب الايراني » .

« اعطونا سلاح » ، و « الموت للشاه » ، شعارات وهتافات لجماهير الشعب الايراني المنتفضة ، اطلقتها ، بعدما عبرت من دون تردد ، الحاجز النفسي لاعلان الاحكام العرفية ، وعادت الى الشارع لتقاوم آلة النظام القمعية الضخمة . ولا شك ان الثمن من دماء الوطنيين المناضلين سيكون باهظا ، لان الشاه في مأزقه المتوقع ، قد اختار الرد بالسلاح الذي طالما اطمأن اليه ، واعتمده لكبت معارضيه ، برغم انه ربما يدرك بان افلات قواته القمعية ودباباته على الجماهير الايرانية ، التي تقاوم بالحجارة ، ومع ذلك تستمر في المقاومة ، لن يشكل مخرجه من المأزق ، وان اطال الى امد ، في عمر عرشه ...